

التفسير المختصر - سورة النساء (٤٠) - الدرس (٦-٩) : تفسير الآية ٧ ، متى يتوقف العلاج الإلهي ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٥-١٠

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.  
أيها الإخوة المؤمنون ؛ في سورة النساء الآية السابعة والأربعون بعد المئة، يقول سبحانه وتعالى:

﴿مَا يَفْعُلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلَيْمًا﴾ (١٤٧)

كيف يتوقف عذاب الله عز وجل ؟ عن كل إنسان، آمن به وشكراً، هذا الجواب أيها الإخوة. هذا الكون بسمواهه وأرضه، مسرح للإنسان تسخرين ؛ تسخير تعريف.... وتسخير تكرييم.... أضرب لكم مثلاً، لو أن لك صديقاً مهندساً في الإلكتروني، فقدم لك جهاز هاتف من أعلى مستوى، قدمه لك هدية، وهذا الجهاز نادر، ويؤدي خدمات كثيرة، ينوب مناب إنسان، أنت أمام هذه الهدية العالية مستوىها، أمام شعورين ؛ شعور امتنان لأن هذا الجهاز قدم لك هدية، وشعور إكبار لهذا العلم الدقيق الذي وراء هذا الجهاز.

هذا معنى قولي... تسخير تعريف... وتسخير تكرييم...

فالكون له مهمتان ؟

المهمة الأولى أن تتعرف إلى الله من خالله.

والمهمة الثانية أن تتყع به.

رد فعل التعرف، إيمان، ورد فعل الانتفاع، الشكر.

إذا آمنت وشكرت، فقد حققت الهدف من وجودك، وحينما تحقق الهدف من وجودك يتوقف العلاج الإلهي.

﴿مَا يَفْعُلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾

أنت متى تتيقن، أن كل أنواع المعالجات، والمضاربات، والشدائد، والمصائب، تتوقف ضدك ! حينما تتحقق الهدف من وجودك.

إنَّ الأَبَ الَّذِي يَتَمَنِي لَابْنَهُ أَنْ يَكُونَ طَبِيباً، يَضِيقُ عَلَيْهِ، يَشَدِّدُ عَلَيْهِ، مَتَى يَتَوَقَّفُ التَّضِييقُ وَالْتَّشَدِيدُ ؟ إِذَا دَخَلَ كُلِيَّةَ الطِّبِّ، وَنَالَ عَلَامَاتِ عَالِيَّةَ، فَقَدْ حَقَقَ الْهَدْفُ مِنْ تَخْطِيَطِ الْأَبِ، لَذَلِكَ مَتَى يَتَوَقَّفُ الْعَلاجُ ؟ مَتَى يَتَوَقَّفُ التَّشَدِيدُ ؟ التَّعْقِيبُ ؟ الْمَضَايِقَةُ ؟ الْإِلْجَاءُ ؟ الْهَمُ ؟ الْحَزْنُ ؟ حِينَمَا يَحْقِقُ الْإِنْسَانُ الْهَدْفَ مِنْ وُجُودِهِ، وَهَذِهِ آيَةٌ دَقِيقَةٌ.

الله سبحانه وتعالى لا يعذب عباده إلا لهدف كبير، لأنّ الشر المطلق لا وجود له في الكون. مثلاً أب طبيب جراح، وله ابن يتمتع بصحة جيدة، فهل يضعه على منصة التشريح، ويخرره ويفتح بطنه بلا سبب؟ مستحيل.

أب طبيب جراح، قلت: أب لأن في قلبه رحمة لا حدود لها تجاه ابنه، وقلت: طبيب لأنّه يعلم وهو جراح أيضاً، أليضع ابنه على المسرحية، ويفتح بطنه بلا سبب؟ أما إذا رأيت أباً يفتح بطن ابنه، فالمعنى أنه يعاني من التهاب زائد.

﴿مَا يَفْعُلُ اللَّهُ بِعَدَّا بِكُمْ إِنْ شَرَكْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلَيْمًا (١٤٧)﴾

يعني إذا أردت أن يتوقف العلاج الإلهي، والشدة الإلهية، فعليك بتحقيق الهدف من وجودك، وتحقيق الهدف من وجودك في هذه الآية، يتمثل بإيمانك بالله، كرد فعل على أن الكون مسخر لك تسخير تعريف، وبشكراً كرد فعل على أن هذا الكون مسخر لك تسخير تكريمه، والله عز وجل يقول:

﴿وَسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾

(سورة الجاثية: ١٣)

بنص القرآن الكريم.

أيها الإخوة؛ رأى النبي عليه الصلاة والسلام - مما يؤكّد هذا المعنى - مرّة هلالاً فقال: ((هلا خير ورشد، هلا خير ورشد))

يعني هذا الهلال يرشدني إلى الله، وأنتفع به في عد الأيام والأسابيع،  
﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾

(سورة يونس: ٥)

الآن مرحلة ثانية: آية مهمة أعظم، أن تهتدي بالكون، أم أن تنتفع به؟ الحقيقة الأجانب الغربيون، انتفعوا بالكون أشد الانتفاع، يعني ما من أمّة وصلت إلى أعماق البحار، ووصلت إلى الأقمار، استغلت المناجم، الفلزات، المعادن، كل شيء مستخدم ومسخر إلى أعلى درجة، وقد أثبتت الله لكم ذلك:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

(سورة الروم: ٧)

لكن مهمّة الكون لتعريفك بالله، أعظم مليون مرة من مهمّة الكون في الانتفاع به. لو كان دخلك محدوداً، حيث لا يسمح لك أن تأكل العسل، وأمسكت كتاباً عن النحل، وقرأت عن عجائب النحل، كيف أن كل كيلو عسل، محصلة طيران أربعين ألف كيلو متر، لو أننا كلفنا نحلة واحدة، أن تصنع لنا كيلو عسل، لاحتاجت أن تطير حول الأرض عشر مرات، وأن هذه النحلة، فيها أجهزة لا يعلمها إلى الله، لا تقف على زهرة امتصّ رحيقها، توفيراً لوقتها وجهدها، أكرر: لا تقف على زهرة امتص رحيقها، وأن النحلات العاملات ترقص رقصات، تعلم بقية النحلات العاملات، كم هي المسافة بينهم وبين الأزهار، هناك بحث قائم بذاته اسمه "رقص النحل"،

والشيء الذي لا يصدق أنها تصنع هذا الشمع، بشكل سداسي منتظم، ليس فيه فراغات بينية، هناك ملقة، وهناك ذكور، وهناك عاملات، بعض العاملات وصيفات للملقة، يأتين بعذاءً ملكيًّا خاص، مأخوذٍ من غبار الطلع، وبعض العاملات تتطف الخلية، فإذا وجدنَ فيها حشرةً كبيرةً، يغلفها بطبقة شمع حتى لا تؤذي وتنفسخ، وبعض العاملات تُهوي هذه الخلية، وبعض العاملات تحمل، والموضع طويل الذيل، وقد أفت كتب كثيرة حول النحل وطريقة عمله وأسلوب حياته. فلو أن إنساناً قرأ كتاباً عن النحل، فخشع قلبه، وانهارت عيناه، ولم يسمح له دخله أن يأكل لعقة عسلٍ واحدة، بينما إنسان آخر كاد ينفرز من أكل العسل، من الذي حق المهدى من وجود النحل والعسل؟ هو الذي عرف الله من خلال هذه الآيات.

لذلك أن تعرف الله من خلال الكون أعظمُ بكثير من أن تتفق به، كل أهل الدنيا انتفعوا بالكون، الكفار، الملحدون، ما من إنسان إلا وينتفع بالكون، لكن المؤمن وحده، هو الذي يهتدي بالكون إلى الله، هو الذي يعبر بالكون إلى المكون، من النظام إلى المنظم، من التسبيير إلى المسير، من التربية إلى المربي، من النعمة إلى المُنعم.

في أيها الإخوة الأكارم؟ يجب أن نعلم أن كأس الماء، كأس الحليب، رغيف الخبز، قطعة الجبن، البرتقالة، التفاحة، ابنك الذي أمامك، الفراش الذي تمام عليه، اللحاف الذي تتدثر به، ثيابك التي تلبسها، الشمس والقمر، الليل والنهار، البحر، الأسماك، الأطياف، كل شيءٍ حولك يدل على الله، فحينما لا تعمل فكرك في الكون، فقد عطلت أكبر شيئاً فيك، وهو أنه دليلك إلى الله عز وجل، أما إذا انتفعت منه فقط، فشأنك شأن أهل الدنيا الذين ينتفعون بالكون، الكفار ينتفعون بالكون، الملحدون ينتفعون بالكون، الانتفاع بالماء والهواء، والزراعة، والصناعة، كل إنسان ينتفع بالكون. النبي الكريم يقول:

### **((هلال خيرٍ ورشدٍ))**

تتفق به، لكن ينبغي أن تهتدي به أيضاً، فالإنسان إذا أكل شيئاً، أو شرب شيئاً، أو نام، فالنوم والأكل والشرب نعمة، وإذا نظر فالنظر نعمة، إذا استمع فالاستماع نعمة، إذا تكلم فالكلام نعمة. يأكل وينام، هناك أجهزة معقدة أيّما تعقيد، عملية هضم معقدة، البنكرياس والكبد، والصفراء، والحركة المعاوية، والعصارات الهاضمة.

الإنسان إذا لم يفكر في تكوين جسمه، لا ينتفع بعقله، لذلك هذه الآية من أدق الآيات.

**﴿مَا يَفْعُلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْنَتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلَيْمًا (١٤٧)﴾**

حينما تؤمن، وحينما تشكر، فإيمانك رد فعل أن الكون مسخر تسخير تعریف، وشكرك رد على أن الكون، مسخر تسخير تکریم، فإذا آمنت وشكترت، توقف العلاج الإلهي.

قال الله تعالى:

**﴿مَا يَفْعُلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْنَتُمْ﴾**

هل أدركنا لماذا إن شكرتم وآمنتكم، فلِمْ يقل الله عز وجل إن شكرتم وصبرتم، إن شكرتم وأطعتم؟ بل قال:

﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾

لأن الشكر دليلٌ أنك تأثرت بهذا الكون الذي سخر لك تسخير تكرييم والإيمان دليل... أنك تأثرت بهذا الكون الذي سخر لك تسخير تعريف، فإذا آمنت وشكرت، ما يفعل الله بعذابك؟  
هذه الآيات الكريمة أيها الإخوة: مرّة ثانية وثالثة، يقول عليه الصلاة والسلام:

(بلغوا عنِي ولو آية)

أجل ولو آية.

أنا أعطي آية واحدة خلال الدرس، لا أضيف آية ثانية، فإذا استوعب الإنسان معناها وعقل الغاية منها، وحدثها بها زوجته، أولاده، جيرانه، شركائه، فما من أحد إلا عنده سهرة أو سهرتان في الأسبوع؟ لقاء، لقاءان، هل من أحد بلا عمل؟ أماله أصدقاء، جيران.

((بلغوا عنِي ولو آية))

هكذا قال عليه الصلاة والسلام، وإذا ما تذكرت معناها في شريط مسجل، وشرحـت هذا المعنى لجلسائك فقد بلغت غاية كبرى، فلذلك نأخذ القرآن آية، آية، نحن نمشي في القرآن بالترتيب، إن شاء الله، فكلما حان وقت درس جديد، نختار آية من هذه الآيات الأساسية، التي تعد ركناً من أركان الإيمان، ونعالجها حتى نقطف ثمراتها.

والحمد لله رب العالمين